الهوية الإنسانية في مواجهة الذكاء الاصطناعي

«بعد أن كافح الإنسان في الماضي كي لا يتحول إلى عبد، عليه أن يناضل كي لا يتحول إلى آلة...»
(آريك فروم)

د. علي وطفة

بدأت بوادر إعصار الثورة الصناعية الرابعة تنذر بتغيرات عاصفة لم يشهد لها التاريخ الإنساني مثيلا من قبل ولاسيما في هوية الفرد والمجتمع والأمة. إنها عصف شديد الوطأة بكل ما عرفته الإنسانية من خبرات وتجارب وأنظمة وأفكار وقيم، وسقوط مروع لكل الأنظمة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها الإنسانية عبر تاريخها المديد. إنها حالة من الانفجار الحضاري الشامل في مختلف أنماط الوجود الإنساني الذي ينذر بزوال جميع الأنظمة الاجتماعية والفكرية التي سادت عبر التاريخ الإنساني. إنه صورة مذهلة من صور الانصهار النووي بين ثورات متدافعة في مختلف مظاهر الوجود، انصهار تتقاطع فيه الثورات المعرفية بالطفرات التكنولوجية وتتحد ثورات الاتصال بالثورات المعرفية ليحدث نوع من الاندماج الأسطوري العجيب بين ثورات مدهشة في مختلف العلوم الإنسانية والفنون والعلوم الدقيقة. وتتحد هذه الثورات جميعها في صورة نظام معقد فائق الذكاء يؤثر في هوية المجتمعات، ويفوق كل ما أبدعته الإنسانية من حكايات وأساطير وأوهام. وهي بعبارة واحدة حالة من التزاوج بين الذكاء البشري والذكاء الآلي بطريقة عبقرية ليس لها مثيل أو نظير.

وما على المرء إلا أن يطلق لخياله العنان في وصف معجزات الثورة الصناعية وسيرتد ومض الخيال خائبا. وتلك هي المرة الأولى في التاريخ التي يضعف فيها الخيال الإنساني عن قدرته على وصف صيرورة التغير في الحياة الإنسانية لأن ما يجري من حوادث واختراعات يفوق كل أشكال التخيل ويرتد قاصرا عما نحن إليه آيلون في زمن الاندماج الثوري الرهيب بين مختلف الثورات الإنسانية في مختلف المجالات العلمية والوجودية.

فنحن نعيش في عالم متفجر بالذكاء الاصطناعي يتمثل في تدفق هائل من المخترعات في عالم افتراضي عجائبي لم يسبق له مثيل، مثل: أجهزة تحديد المواقع (GPS) وبرامجه، والسيارات ذاتية القيادة، والطائرات المسيرة (بدون طيار)، وبرمجيات الترجمة، والحاسبات الذكية، والروبوتات المذهلة، والطابعات ثلاثية الأبعاد، وإنترنيت الأشياء، والنانو التكنولوجي، والطبابة الرقمية بالحاسبات الذكية، والمحاماة البرمجية.

تقاطع ثورات متدافعة معرفية وتكنولوجية واتصالية لتتحد في نظام معقد فائق الذكاء يؤثر في هوية المجتمعات

ومن أجل تقديم تصور سردي واضح للعالم الافتراضي الذي نشارف أن نعيش فيه في مستقبل قريب جدا ضمن فضاء سيبراني يدور كل شيء فيه حول الإنسان، وسيؤثر في هويتنا كأفراد ومجتمعات، سنستعير وصفا أدبيا لأحد الكتاب الذي يصف صورة من الحياة اليومية في عالم الثورة الصناعية الرابعة التي تدق علينا الأبواب بكل ما هو مدهش ومثير وعجيب بقوله:

«تستيقظ في الساعة السادسة صباحا، بعد نوم عميق على أنغام ساعتك الذكية، في ذات اللحظة تدب الحياة في بيتك، في غرفة النوم تبدأ الإضاءة في ساعة من الصباح تستنير الغرفة ذاتيا، ويبدأ الحمام بالاستعداد كي تأخذ حمامك الصباحي المعتاد، وكذلك الحال في المطبخ. وبعد أن تنتهي من إفطارك تبدأ بارتداء ملابسك التي فصلت على مقاسك، وبعدها يبدأ محرك سيارتك بالعمل في الكراج استعدادا للذهاب للعمل. تحاول الاتصال بكبير المهندسين بالمصنع الذي تملكه، ولكنك تفاجأ بأن بطاريته على وشك النفاد، لكن الهاتف يعطيك تنبيهاً بأنه لا داعي للقلق فعملية استبدال البطارية تتم الآن داخلياً دون مشاكل. تستلم رسالة على هاتفك تفيد

بأن إحدى الآلات في المصنع قد تعطلت وأن عملية التصليح الذاتي قد بدأت بالفعل وأنها ستنتهي خلال ساعة تقريباً. ليس من الضروري أن تذهب يوميا إلى المصنع فالمصنع يدير نفسه بالكامل ويعتني بنفسه في كل الحالات الطارئة التي قد تستجد، وأنت اليوم ذاهب هناك لمجرد الرغبة بالذهاب لا أكثر. هذا ليس فيلم من أفلام الخيال العلمي، نحن في عالم ما بعد الثورة الصناعية الرابعة، حيث لأن كل ما تحتاجه مصّنع لك حسب طلبك ومن أجل زيادة رفاهيتك».

تحديات الهوية

وكما هي فرص الثورة الصناعية الرابعة فهناك تحديات جسام ستواجهها الهوية الفردية والمجتمعية وتغير من مفاهيمها وكينونتها وماهيتها، ولا تعدو أن تكون الصورة التي قدمناها أكثر من الوجه الجميل لهذه الثورة، فلكل ثورة، كما لكل شيء في الوجود جانبان أحدهما يومض بالضياء وآخر ينكمش في الظل والعتمة، ولا تشكل الثورة الرابعة استثناء إذ تحمل في ثناياها كثيرا من الويلات وفي طواياها كثيرا من الإكراهات التي لن تروق لكثير من بني البشر. وفي هذا الوجه المظلم تكمن تحديات الهوية وفي مقدمتها إشكاليات العطالة عن العمل والاغتراب الإنساني أو ما يسمى بتشيؤ الإنسان، وقضايا الضياع وفقدان الإنسان لذاته، والانقسام الطبقي الحاد.

بين الإنسان والذكاء الاصطناعي:

يعتقد بعض الباحثين بأنه يمكن لمعطيات الأتمتة الاصطناعية في مضمار الثورة الصناعية الرابعة أن تحدث تغييرا جوهريا في وضعية العمل

العطالة وتشيؤ الإنسان وقضايا الضياع والانقسام الطبقي، الوجه المظلم لهذه الثورات المتداخلة

وقد تؤدي إلى إلغاء الشعار المعروف «العيش من أجل العمل»، وتحقيق شعار «الحياة من أجل الترفيه» وممارسة الهوايات، فعندما تؤدي الآلات الذكية معظم الأعمال والوظائف في المجتمع، يمكن للمواطنين تحقيق نوع خاص من الهوية الذاتية عن طريق تكريس مزيد من الوقت للعمل التطوعي، وريادة الأعمال، والعيش مع الأسرة، والمشاركة المدنية، والأنشطة الإبداعية.

إن الثورة الصناعية الرابعة لن تغير فقط ما نقوم به ولكنها ستغير أيضا ما نحن عليه أي ستغير في جوهر هويتنا وكينونتنا. إنها سوف تؤثر على هويتنا وجميع القضايا المرتبطة بها: خصوصيتنا واستقلاليتنا وأفكارنا وأنماط استهلاكنا، والوقت الذي نكرسه للعمل والترفيه، وكيف نطور عملنا، ومهاراتنا وكيف نلتقي بالآخرين ونطور علاقاتنا معهم.

فالوظائف تتجه إلى الاختفاء والشركات إلى الاندثار، فالجديد يولد والقديم يموت من غير احتواء. والعالم يتغير والذهنيات تتبدل، وكأن الإنسان في عصف من جحيم التغير والتبدل والاختراع، التي يتحجر فيها الإنسان إلى حالة من التشيؤ والانصهار في عالم مادي تحكمه الآلات المدججة بالذكاء الاصطناعي. وإذ كان الإنسان في العصور القديمة يناضل كي لا يكون عبدا فعليه اليوم أن يناضل كي لا يكون آلة كما يقول أحد الحكماء.

وفي مواجهة هذا العالم المتدفق بالذكاء الاصطناعي فإن المجتمعات الإنسانية مطالبة اليوم بوضع استراتيجيات مضمخة بالأمل في مواجهة التحديات وتمكين الفرص في إقامة مجتمعات عادلة خلاقة. وهي معنية ضمن هذه الاستراتجيات الجديدة أن تقدم جوانب مضيئة في مجال احتواء مختلف التحديات ولاسيما مسألة الاغتراب الرقمي وتنامي الحضور المكثف للذكاء الاصطناعي وذلك لحماية الإنسان من الآثار السلبية للثورة الصناعية الرابعة.

وفي المجال التربوي فإنه لمن الواجب على الأنظمة التربوية في العالم أن تطور استراتيجيات جديدة لمواجهة مختلف التحديات الناجمة عن الثورة ولاسيما تحديات اختفاء الوظائف والعمل على تأهيل الناشئة تأهيلا مستقبليا يعتمد على احتمالات الذكاء الاصطناعي وتمكين الناشئة من الخبرات والمهارات والمعارف التي يمكنها أن تواكب حركة التطور التكنولوجي الهائل في العقود القادمة من القرن الحادي والعشرين. وفي الختام نقول بأن الإنسان استطاع حتى يومنا هذا أن يجد لكل معضلة مخرجا عبر تاريخه الطويل وهو بطاقته اللامحدودة وإمكانياته المذهلة لقادر على أن يحقق المستحيل، وكلنا أمل أن تجد الإنسانية طريقها المستنير في المحافظة على الكينونة الإنسانية في معركة البقاء والمصير.

خاتمة

يشير التطور الجاري في التقنيات البيولوجية إلى إمكانية نشوء سلالات بشرية فائقة نتيجة التفاعل بين التركيبات الجينية للبشر وتخصيبها مع الذكاء الاصطناعي، فتصبح لدينا سلالة أكثر ذكاء أو أخرى أطول عمرا، وهكذا دواليك وقد يقودنا هذا التطور إلى توليد كائنات هجينة كائنات نصف بشرية -نصف آلية. أو بعبارة أدق طبيعية جديدة شبه بشرية بوساطة المزج بينما هو بيولوجي وما هو آلي ضمن مكوناتها. وعندئذ سوف تكون عملية تميز الفروقات الشاسعة بين الكائنات الحية والروبوتات شبه حية بمثابة مهمة صعبة حيث تصل إلى حد التعقيد.

والأكثر إدهاشا من كل ذلك عندما نتمكن في المستقبل من إحياء (افتراضيا وليس بيولوجيا) عبقريات غادرت وجودنا الدنيوي عبر تطبيقات محاكاة المخ البشري. وفي هذه الحالة سوف نضمن استمرارية عطائهم الفكري والعلمي عبر حضورهم الافتراضي. ولعل هذه الفرضية قد غادرت مؤخرا دائرة المحال والمتعذر واستقرت في دائرة الممكن والمستطاع، نتيجة التطور المتلاحق في تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي والأبحاث العالمية المتفرقة التي تحاول محاكاة المخ البشري داخل بيئة كمبيوترية ولابد وأنها ستعاود تقدمها في المستقبل القريب لينتهي إلى دائرة الثابت واليقيني الذي لا يحتمل الشك.

إن التبعات المترتبة على ذلك جدا مدهشة في ظل إذابة الفواصل بين عالم الأحياء وعالم آخر غامض. قد تبدو هذه السيناريوهات مجرد خيالات علمية أو سرديات خرافية مثل تلك التي يعج فيها فضاء فهو ذاته كان في الماضي القريب خيالا علميا هو الآخر ثم تحول إلى حقيقة نلمس وجودها جميعا.